مقتطفات من كتاب الداء والدواء

في الحديث عن الدعاء

قال رسول الله ﷺ: «الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السموات والأرض».

قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب الملِحّين في الدعاء»[1]

وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يسأل اللَّهَ يغضَبْ عليه»[٢].

وفي صحيح مسلم[٤] عنه: «لا يزال يُستجاب للعبد ما لم يَدْعُ بإثم أو قطيعةِ رحمٍ، ما لم يستعجِلْ». قيل: يا رسولَ الله، وما الاستعجال[٥]؟ قال: «يقول: قد دعوتُ وقد دعوتُ، فلم أرَ يستجيب[٦] لي. فيَستحسِرُ عند ذلك ويدَعُ الدعاء».

وقال أبو ذر: يكفي من الدعاء مع البِرّ ما يكفي الطعام من الملح[1]

عن النبي ﷺ قال: «دعوة ذي النون إذ دعا، وهو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء/ ٨٧] إنّه لم يدعُ[٦] بها مسلمٌ في شيء قطّ إلا استجاب الله له»[٧].

وفي الصحيحين[٢] من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله ربُّ العرش العظيم[٣]، لا إله إلا الله ربُّ السموات وربُّ الأرض ربُّ العرش الكريم».

وفيه أيضًا[٢] من حديث أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ إذا كَرَبه[٣] أمرٌ قال: «يا حيّ ياقيوم برحمتك أستغيث».

وإذا جمع الدعاءُ حضورَ القلب وجمعيتَه بكلّيته على المطلوب، وصادف وقتًا من أوقات الإجابة الستة وهي: الثلث الأخير[٣] من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة، وآخر ساعة بعد العصر من ذلك اليوم[٤]؛ وصادف خشوعًا في القلب، وانكسارًا بين يدي الربّ، وذلاً له، وتضرّعًا ورِقّةً؛ واستقبل [٤/أ] الداعي القبلة، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله تعالى، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنّى بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ، ثم قدّم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار، ثم دخل على الله، وألحّ عليه[١] في المسألة، وتملّقه، ودعاه رغبة ورهبة[٢]، وتوسّل إليه بأسمائه[٣] وصفاته وتوحيده، وقدّم بين يدي دعائه صدقة = فإنّ هذا الدعاء لا يكاد يُرَدّ أبدًا، ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي ﷺ أنها مظنة الإجابة، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم:

فمنها ما في السنن وصحيح ابن حبان من حديث عبدالله بن بريدة عن أبيه أنّ رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسألك بأنّي أشهد أنّك أنت الله، لا إله إلا أنت، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد. فقال: «لقد سأل الله بالاسم الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب»[٤].

وفي السنن وصحيح ابن حبان أيضًا من حديث أنس بن مالك أنه كان مع رسول الله ﷺ جالسًا، ورجلٌ يصلي، ثم دعا فقال[٢]: اللهم إنّي أسألك بأنّ لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حيّ يا قيوم. فقال النبي ﷺ: «لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى»[٣].

قبر سعد بن معاذ

وفي المسند[٢] أيضًا من حديث جابر، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ حين توفي، فلمّا صلّى عليه رسول الله ﷺ، ووُضِعَ في قبره، وسُوِّيَ عليه، سبّح رسول الله ﷺ، فسبّحنا طويلاً، ثم كبّر، فكبّرنا. فقيل: يا رسول الله، لم سبّحتَ ثمّ كبّرت؟ فقال: «لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبرُه، حتّى فرَّج الله عنه».

العلاج بالفاتحة

ومكثتُ بمكة مدّةً تعتريني[٢] أدواء، ولا أجد طبيبًا ولا دواء، فكنتُ أعالج نفسي بالفاتحة، فأرى لها تأثيرًا [٢/ب] عجيبًا[٣]. فكنت أصف ذلك لمن يشتكي[٤] ألمًا، وكان[٥] كثير منهم يبرأ سريعًا[٦].

المعاصي

وقال بعض السلف: إذا رأيت الله يتابع نعمَه عليك[١]، وأنت مقيم على معاصيه، فاحذره؛ فإنما هو استدراج[٢] يستدرجك به[٣].

وقد ردّ سبحانه على من يظن هذا [١٦/أ] الظن بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر/ ١٥ ـ ١٧] أي: ليس كلُّ من نعّمتُه ووسّعتُ عليه رزقَه أكون قد أكرمتُه، ولا كلُّ من ابتليتُه وضيّقت عليه رزقه أكون قد أهنتُه. بل أبتلي هذا بالنعمة، وأكرم هذا بالابتلاء.

ومن ههنا قال بعض السلف: المعاصي بريد الكفر، كما أنّ القُبلة بريد الجماع، والغناء بريد الزنا، والنظر بريد العشق، والمرض بريد الموت[٤].

وقرأ تميم الداري ليلةً سورة الجاثية، فلمّا أتى على هذه الآية ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية/ ٢١] جعل يردّدها ويبكي حتى أصبح[٢].

قال بعض السلف: إنّ من عقوبة السيئةِ السيئةَ بعدها، وإنّ من ثواب الحسنةِ الحسنةَ بعدها[٣]. فالعبد إذا عمل [٢٧/أ] حسنة قالت أخرى إلى جانبها: اعملني أيضًا، فإذا عملها قالت الثانية كذلك، وهلم جرًّا، فتضاعف الربح[٤]، وتزايدت الحسنات. وكذلك جانب[٥] السيئات أيضًا، حتى تصير الطاعات والمعاصي هيئات راسخة وصفات لازمة وملكات ثابتة.

ولايزال العبد يعاني الطاعة، ويألفها، ويحبّها، ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه برحمته عليه الملائكةَ تؤزُّه إليها[٤] أزًّا، وتحرّضه عليها، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها[٥]. ولا يزال يألف المعاصي، ويحبّها، ويؤثرها[٦]، حتّى يرسل الله عليه الشياطين فتؤزّه إليها أزًّا.

ومن عقوبات الذنوب **أنها تُزيل النِّعَم وتُحِلّ النِّقَم**. فما زالت عن العبد نعمة إلا بذنب، ولا حلّت به نقمة إلا بذنب؛ كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رُفِعَ بلاء إلا بتوبة[٤].

وفي بعض[٥] [٣٥/ب] الآثار الإلهية عن الربّ تبارك وتعالى أنّه قال: وعزّتي وجلالي، لا يكون عبد من عَبِيدي[٦] على ما أحِبّ، ثم ينتقل عنه إلى ما أكره[١]، إلا انتقلتُ له مما يحبّ إلى ما يكره[٢]. ولا يكون عبد من عَبيدي على ما أكره، ثم ينتقل عنه إلى ما أحِبّ، إلا انتقلتُ له مما يكره إلى ما يحبّ[٣].

وقد أحسن[٤] القائل:

إذا كنتَ في نعمةٍ فَارْعَها ... فإنّ المعاصي تُزيل النِّعَمْ[٥]
وحُطْها بطاعةِ ربِّ العبادِ ... فربُّ العبادِ سريعُ النِّقَمْ
وإيّاك والظلمَ مهما استطعتَ ... فظلمُ العبادِ شديدُ الوَخَمْ
وسافِرْ بقلبك بينَ الورى ... لِتُبصِرَ آثارَ من قد ظَلَمْ
فتلك مساكنُهم بعدَهم ... شهودٌ عليهم ولا تُتَّهَمْ
وما كان شيء عليهم أضَرَّ ... من الظلم، وهو الذي قد قَصَمْ
فكم تركوا مِنْ جِنانٍ ومِنْ ... قُصورٍ وأخرى عليهم أطَمّ[٦]
صلُوا بالجحيم وفات النعيمُ ... وكان الذي نالَهم كالحلُمْ[٧]

الاستغفار للمؤمنين

ومنها: **حرمان دعوة رسول الله ﷺ ودعوة الملائكة**. فإنّ الله سبحانه أمر نبيّه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾[٤] [غافر/ ٧ ـ ٩].

الدنيا والأخرة

قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يدخِلُ أحدُكم إصبَعَه في اليمّ، فلينظُرْ بم ترجع»[٩]؟.

بلال بن سعد

عن بلال بن سعد. قال حين حضرته الوفاة: غدًا نلقى الأحبة، محمدًا وحزبه فتقول امرأته: واويلاه! ويقول: وافرحاه! أخرجه ابن أبي الدنيا

وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ

فيا عجبًا من بضاعةٍ معك، اللَّهُ مشتريها، وثمنُها جنّةُ المأوى، والسفيرُ الذي جرى على يده[٢] عقدُ التبايع وضمِنَ الثمنَ عن المشتري هو الرسول، وقد بعتَها بغاية الهوان!

إذا كان هذا فعلَ عبدٍ بنفسه فمَنْ ذا له من بعد ذلك يكرِمُ[٣]

﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴾ [الحج/ ١٨].

ويقول الآخر: إنّ في الدنيا جَنّةً، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة[١].

الشيطان ذئب الإنسان

النبي ﷺ قال: «إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية. فإياكم والشعاب، وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد».

عتاب الله لعباده

يقول سبحانه لعباده: أنا أكرمتُ[١] أباكم، ورفعت قدره، وفضّلته على غيره، فأمرتُ ملائكتي كلّهم أن يسجدوا له تكريمًا[٢] وتشريفًا؛ فأطاعوني، وأبى عدوّي وعدوّه، فعصى أمري، وخرج عن طاعتي. فكيف يحسن بكم بعد هذا أن تتخذوه[٣] وذريته أولياء من دوني، فتطيعونه في معصيتي، وتوالونه في خلاف مرضاتي، وهم[٤] أعدى عدو لكم؟ فواليتم عدوّي، وقد أمرتكم بمعاداته.

ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوعٌ من العتاب لطيفٌ عجيبٌ، وهو أنّي عاديتُ إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتي، فكانت[١] معاداتُه لأجلكم، ثم كان عاقبة هذه المعاداة أن عقدتم بينكم وبينه عقد المصالحة!

وقد أخرج الله سبحانه الأبوين[٤] من الجنة بذنب واحد ارتكباه، وخالفا فيه نهيه[٥]. ولعَن إبليسَ، وطرده، وأخرجه من ملكوت السماء[٦] بذنبٍ[٧] ارتكبه، وخالف فيه[٨] أمرَه. ونحن ـ معاشرَ الحمقى ـ كما قيل:

نصِلُ الذنوبَ إلى الذنوب ونرتجي دَرَكَ الجِنانِ لدى النعيمِ الخالدِ[١]

ولقد علمنا أخرَجَ الأبوَينِ من ملكوتها الأعلى بذنب واحد[٢]

وذلك أن الله سبحانه ابتلى هذا الإنسانَ بعدوّ لا يفارقه طرفةَ عين. ينام، ولا ينام عنه[٢]. ويغفل، ولا يغفل عنه. يراه هو وقبيلُه من حيث لا يراه. يبذل جهده في معاداته في كل حال

حديث إبليس لجنوده

واستعينوا يا بنيّ بجندين عظيمين لن تُغلَبوا معهما:

أحدهما: جند الغفلة، فأغفِلوا قلوبَ بني آدم عن اللَّهِ والدارِ الآخرة بكلّ طريق، فليس لكم شيء أبلغ في تحصيل غرضكم من ذلك، فإنّ القلب إذا غفل عن الله تمكّنتم منه ومن أعوانه[٣].

والثاني: جند الشهوات فزيّنوها في قلوبهم، وحسِّنوها في أعينهم.

وصولوا عليهم بهذين العسكرين، فليس لكم في بني آدم أبلغُ منهما. واستعينوا على الغفلة بالشهوات، وعلى الشهوات بالغفلة. واقرنوا بين الغافلَين، ثم استعينوا بهما على الذاكر، ولا يغلب واحدٌ خمسةً، فإنّ مع الغافلَين شيطانَين، صاروا أربعةً، وشيطان الذاكر معهم.

والمقصود أن الذنوب والمعاصي سلاحٌ ومددٌ يُمِدُّ بها العبدُ أعداءه، ويعينهم بها على نفسه، فيقاتلونه بسلاحه، ويكون معهم على نفسه. وهذا غاية الجهل، و

ما يبلغ الأعداءُ من جاهلٍ ما يبلغ الجاهلُ من نفسه[٢]

وكان بعض السلف يقول في خطبته: ألا رُبّ مهينٍ لنفسه وهو يزعم أنه لها مكرم، ومُذِلٍّ لنفسه وهو يزعم أنه لها مُعِزّ، ومصغّرٍ لنفسه وهو يزعم أنه لها مكبّر، ومضيِّعٍ لنفسه و هو يزعم أنه[٢] مراعٍ لحقّها. وكفى بالمرء جهلاً أن يكون مع عدوه على نفسه، يبلغ منها بفعلَه[٣] [٥١/أ] مالا يبلغه عدوُّه[٤]. والله المستعان.

نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ

فلما نسوا ربَّهم سبحانه نسيهم وأنساهم أنفسهم كما قال: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة/ ٦٧]، فعاقب سبحانه من نسِيَه عقوبتين: إحداهما: أنه سبحانه نسيه. والثانية: أنّه أنساه نفسَه.

ونسيانُه سبحانه للعبد: إهمالُه، وتركُه، وتخلّيه عنه[١]، وإضاعتُه؛ فالهلاك أدنى إليه من اليد للفم!

وأمّا إنساؤه نفسَه فهو: إنساؤه لحظوظها العالية وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وما تكمل به، يُنسيه ذلك[٢] جميعَه، فلا يُخطِره بباله، ولا يجعله على ذكره، ولا يصرف إليه همّتَه فيرغبَ فيه، فإنه لا يمرّ بباله حتى يقصدَه ويُؤْثِره.

وأيضًا فيُنسيه عيوبَ نفسه ونقصَها وآفاتِها، فلا يخطر بباله إزالتها وإصلاحها[٣].

وأيضًا يُنسيه أمراض نفسه وقلبِه وآلامَها، فلا يخطر بقلبه مداواتُها، ولا السعيُ في إزالة عللها وأمراضها التي تؤول به إلى الفساد والهلاك. فهو مريض مثخَن بالمرض، ومرضُه مُترامٍ به إلى التلف، ولا يشعر بمرضه، ولا يخطر بباله مداواته. وهذا من أعظم العقوبة العامة[٤] والخاصة.

فالخاسرون الذين يعتقدون أنهم أهل الربح والكسب اشتروا الحياة الدنيا وحظَّهم فيها ولذّاتِهم بالآخرة وحظِّهم فيها، فأذهبوا طيّباتِهم في حياتهم الدنيا، واستمتعوا بها، ورضوا بها، واطمأنّوا إليها. وكان سعيُهم لتحصيلها، فباعوا، واشتروا، واتجروا. وباعوا آجلاً بعاجل، ونسيئةً بنقد، وغائبًا بناجزٍ؛ وقالوا: هذا هو الحزم. ويقول أحدهم:

خذْ ما تراه ودَعْ شيئًا سمعتَ به[٥]

الكَذِب

وفي بعض الآثار: «إذا كذب العبدُ تباعد منه الملَك ميلاً مِن نتَنِ ريحه»[١]. فإذا كان هذا تباعُدَ المَلكِ منه من كذبة واحدة، فماذا يكون مقدارُ بعده منه مما هو أكبر من ذلك وأفحش منه؟

سلامة القلب

وقد أثنى الله تعالى على خليله بسلامة قلبه فقال: ﴿ ۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات/ ٨٣ ـ ٨٤]. وقال حاكيًا عنه أنه قال[٤]: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء/ ٨٨ ـ ٨٩].

ولا تتمّ له سلامته[٢] مطلقًا حتى يسلَم من خمسة أشياء: من شركٍ يناقض التوحيد، وبدعةٍ تخالف السنّة، وشهوةٍ تخالف الأمر، وغفلةٍ تناقض الذكر، وهوى يناقض التجريد والإخلاص. وهذه الخمسة حُجُب عن الله، وتحتَ كل واحدٍ[٣] منها أنواع كثيرة تتضمّن أفرادًا لا تنحصر.

دعاء عمر بن الخطاب

وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اللهم اجعل عملي كلَّه صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا[٣].

البدعة والمعصية

كما قال بعض السلف: البدعة أحبُّ إلى إبليس من المعصية، لأنّ المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها[٤]. وقال إبليس: أهلكتُ بني آدم بالذنوب، وأهلكوني بالاستغفار وبلا إله إلا الله. فلما رأيت ذلك بثثتُ فيهم الأهواءَ، فهم يذنبون، ولا يتوبون، لأنّهم يحسبون أنهم يحسنون صُنْعا![٥]

اللحظات والخطرات واللفظات والخطوات

ولهذا قيل: **من حفظ هذه الأربعة أحرز دينَه** [٧٥/ب]: **اللحظات، والخطرات، واللفظات، والخطوات**.

فأما اللحظات فهي رائد الشهوة ورسولها[٣]، وحفظها أصلُ حفظ الفرج. فمن أطلق بصره أورده موارد الهلَكات.

وقال النبي ﷺ: «لا تُتْبِعِ النظرةَ النظرةَ، فإنّما لك الأولى، وليست لك الآخِرة[٤]»[٥].

وأما الخطرات فشأنها أصعب، فإنّها مبدأ الخير والشرّ، ومنها تتولّد الإرادات والهمم والعزائم. فمن راعى خطراتِه ملَكَ زمامَ نفسه، وقهر هواه. ومن غلبته خطراتُه فهواه ونفسه له أغلَب، ومن استهان بالخطرات [٧٦/ب] قادته قسرًا إلى الهلكات.

ثمّ الخطراتُ بعدُ أقسامٌ تدور على أربعة أصول:

خطرات يستجلِب بها منافعَ دنياه.

وخطرات يستدفع بها مضارَّ دنياه.

وخطرات يستجلب بها مصالح[٢] آخرته.

وخطرات يستدفع بها مضارّ آخرته.

بعض السلف: أُنزِل القرآنُ لِيُعمَل به، فاتخذوا تلاوته عملاً[1]

وإذا كان العبد، وهو في الصلاة، ليس له[2] إلا ما عقل منها، فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله وله[3].

وهذا عمر بن الخطاب كانت تتزاحم عليه الخواطر في مراضي الربّ تعالى، فربّما استعملها في صلاته، فكان يجهِّز[1] جيشَه وهو في صلاته[2]، فيكون قد جمع بين الجهاد والصلاة.

وهذا من باب تداخل العبادات في العبادة الواحدة. وهو باب عزيز شريف لا يعرفه[3] إلا صادق الطلب، متضلّع من العلم، عالي الهمة، بحيث يدخل في عبادةٍ يظفر فيها بعبادات شتى[4]. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وأما اللفظات، فحفظها بأن لا يُخرِجَ لفظةً ضائعةً، بل لا يتكلّم إلا فيما يرجو فيه الربح والزيادة في دينه. فإذا أراد أن يتكلم بالكلمة نظر: هل فيها ربح وفائدة أم لا؟ فإنْ لم يكن فيها ربح أمسك عنها، وإن كان فيها ربح نظر: هل يفوته بها كلمة هي أربح منها، فلا يضيّعها بهذه.

وإذا أردت أن تعرف ذلك، فانظر إلى ما رواه مسلم في صحيحه[١] من حديث جندب بن عبدالله قال: قال رسول الله [٧٩/ب] ﷺ: «قال رجل: والله لا يغفر اللَّهُ لفلان. فقال الله عز وجل: مَن ذا الذي يتألّى عليّ أنّي لا أغفر لفلان؟ قد غفرتُ له، وأحبطتُ عملَك».

فهذا العابد[٢] الذي قد عَبَدَ اللَّهَ ما شاء أن يعبده، أحبطت هذه الكلمةُ الواحدة عملَه كلّه!

وعند مسلم[٣]: «إنّ العبد لَيتكلّم بالكلمة، ما يتبيّن ما فيها، يهوي بها في النار أبعدَ ما بين[٤] المشرق والمغرب».

وفي لفظ: أنّ غلامًا استشهد يوم أحد، فوُجِد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع، فمسحت أمّه التراب عن وجهه، وقالت: هنيئًا لك يا بنيّ، لك الجنة[٣]. فقال النبي ﷺ: «وما يدريك، لعلّه كان يتكلّم فيما لا يعنيه، ويمنع ما لا يضرّه».

وفي الصحيحين[٤] من حديث أبي هريرة يرفعه: «من كان يؤمن بالله [٨٠/أ] واليوم الآخر فَلْيقل خيرًا أو لِيَصْمُتْ».

وفي حديث آخر: إذا أصبح العبد[٥] فإنّ الأعضاء كلها تكفِّر اللسانَ[٦]، تقول: اتّقِ الله فينا[٧]، فإنّما نحن بك. فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججتَ اعوججنا[٨].

وقد كان السلف يحاسب أحدهم نفسَه في قوله: يوم حارّ، ويوم بارد.

وفي اللسان آفتان عظيمتان، إن [٨٠/ب] خلص من إحداهما لم يخلص من الأخرى: آفة الكلام، وآفة السكوت. وقد يكون كلّ منهما أعظم إثمًا من الأخرى في وقتها. فالساكت عن الحقّ شيطان أخرس عاصٍ لله مُراءٍ مداهنٌ إذا لم يخف على نفسه[١]، والمتكلّم بالباطل شيطان ناطق عاصٍ لله. وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته، فهم بين هذين النوعين.

وأما الخطوات: ، فحفظها[٤] بأن لا ينقل قدمه إلا فيما يرجو ثوابه، فإن لم يكن في خُطاه مزيدُ ثواب، فالقعود عنها خير له.

ولما كانت العثرة عثرتين: عثرة الرجل، وعثرة اللسان جاءت إحداهما قرينة الأخرى في قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان/ ٦٣]، فوصفهم بالاستقامة في لفظاتهم وخطواتهم.

حديث عمار بن ياسر أنه[1] صلّى صلاةً فأوجز فيها، فقيل له في ذلك، فقال: أمَا[2] إنّي دعوتُ فيها بدعَواتٍ كان النبي ﷺ يدعو بهنّ: «اللهم إنّي أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق، أحْيِني إذا كانت الحياة خيرًا لي[3]، وتوفّني إذا كانت الوفاة خيرًا لي. اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمةَ الحقّ في الغضب والرضا[4]، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيمًا لا ينفد، وأسألك قرةَ عين لا تنقطع، وأسألك بردَ العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم[5]، وأسألك الشوق إلى لقائك، في غير ضرّاء مُضِرّة ولا فتنة مضِلّة. اللهم زيِّنّا بزينة الإيمان، واجعلنا هداةً مهتدين».

أنواع المحبة

وقال بعض أهل البصائر[2] في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ﴾ [العنكبوت/ ٥]: لمّا علم الله سبحانه شدة شوق أوليائه إلى لقائه، وأنّ قلوبهم لا تهدأ دون لقائه، ضرب لهم أجلاً وموعدًا للّقاء تسكن نفوسهم به.

وأصل[4] الشرك بالله الإشراك به في المحبة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ

وههنا **أربعة أنواع من المحبّة** يجب التفريق بينها، وإنّما ضلّ من ضلّ بعدم التمييز بينها:

أحدها: محبة الله. ولا تكفي وحدها في النجاة من عذابه والفوز بثوابه[1]، فإنّ المشركين وعبّاد الصليب واليهود وغيرهم يحبّون الله.

الثاني: محبة ما يحبّه الله[2]. وهذه هي التي تُدخله في الإسلام، وتُخرجه من الكفر؛ وأحبُّ الناس إلى الله أقوَمُهم بهذه المحبة وأشدّهم

فيها.

الثالث: الحبّ لله وفيه. وهي من لوازم محبة ما يحبّ، ولا يستقيم محبة ما يحب إلا بالحبّ فيه وله.

الرابع[1]: المحبة مع الله. وهي المحبة الشركية، وكلّ من أحبّ شيئًا مع الله، لا لله ولا من أجله ولا فيه، فقد اتخذه ندًّا من دون الله، وهذه محبة المشركين.

وبقي قسم خامس: ليس مما نحن فيه، وهو المحبة الطبعية، وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه، كمحبة العطشان للماء، والجائع للطعام، ومحبة النوم والزوجة[2] والولد. فتلك لا تُذَمّ إلا إذا ألهَتْ عن ذكر الله وشغلتْ عن محبته، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [المنافقون/ ٩] وقال: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ [٩٦/أ] وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [النور/ ٣٧].

ثم **الخُلّة**، وهي تتضمّن[٣] كمال المحبة ونهايتَها، بحيث لا يبقى في قلب المحبّ سعة لغير محبوبه، وهي منصب لا يقبل المشاركة بوجهٍ ما[٤]. وهذا المنصب خَلَصَ[٥] لخليلين صلوات الله وسلامه

عليهما: إبراهيم ومحمد، كما قال ﷺ: «إن الله اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً»[١].

وفي الصحيح عنه ﷺ: «لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله»[٢].

ولما سأل إبراهيمُ الولدَ، فأُعطِيَه، وتعلّق حبه بقلبه، فأخذ منه شعبةً؛ غار الحبيب على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره، فأمره بذبحه[٤]. وكان الأمر في المنام، ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاءً وامتحانًا. ولم يكن المقصود ذبح الولد، ولكن المقصود ذبحه من قلبه، ليخلص القلب للربّ. فلما بادرالخليل إلى الامتثال، وقدّم محبة الله على محبة ولده؛ حصل المقصود، فرُفع الذبح. وفُدي بذبح عظيم، فإنّ الربّ تعالى ما أمر بشيء ثم أبطله[٥] رأسًا، بل لابدّ أن يبقى بعضه أو بدَلُه، كما أبقى شرعية الفداء، وكما أبقى استحباب الصدقة بين يدي المناجاة، وكما أبقى الخمسَ صلواتٍ بعد رفع الخمسين وأبقى ثوابها

وأما ما يظنّه بعض الغالطين أنّ المحبة أكمل من الخلّة، وأنّ إبراهيم خليل الله[٣]، ومحمد حبيب الله، فمن جهله. فإنّ المحبة عامة، والخلّة خاصة، والخلّة نهاية المحبة. وقد أخبر النبي ﷺ أنّ الله اتخذه خليلاً، ونفى أن يكون له خليل غير ربّه، مع إخباره[٤] بمحبته[٥] لعائشة ولأبيها ولعمر بن الخطاب وغيرهم[٦].

وأيضًا فإنّ الله[٧] سبحانه يحبّ التوابين، ويحبّ المتطهرين، ويحبّ الصابرين،[٩٦/ب] ويحبّ المحسنين، ويحبّ المتقين[٨]، ويحب المقسطين. وخُلّته خاصة بالخليلين. والشابّ التائب حبيب الله[٩].

فالأمور أربعة:

مكروه يُوصِل إلى مكروه.

ومكروه يوصل إلى محبوب.

ومحبوب يوصل إلى محبوب.

ومحبوب يوصل إلى مكروه[٥].

معرفة العيوب

والداخل في الشيء لا يرى عيوبه، والخارج منه الذي لم يدخل فيه لا يرى عيوبه. ولا يرى عيوبه[٣] إلا من دخل فيه ثم خرج منه. ولهذا كان الصحابة الذين دخلوا في الإسلام بعد الكفر خيرًا من الذين ولدوا في الإسلام. قال عمر بن الخطاب: إنّما تُنقَض عُرى الإسلام عروةً عروةً إذا وُلِد في الإسلام من لم يعرف الجاهلية[٤].

الله

وفي حديث آخر: «إنّه إذا تجلّى لهم ورأوه نسُوا ما هم فيه من النعيم»[٤].

وفي كتاب السنّة لعبدالله ابن الإمام أحمد[٢] مرفوعًا: «كأنّ الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن. إذا سمعوه[٣] من الرحمن، فكأنّهم[٤] لم يسمعوه قبل ذلك».

لذّات الدنيا

ولذّات الدنيا ثلاثة أنواع:

فأعظمها وأكملها: ما أوصل إلى لذة الآخرة. ويثاب الإنسان على هذه اللذة أتمّ ثواب. ولهذا كان المؤمن يثاب على ما يقصد به وجهَ الله من أكله وشربه ولبسه ونكاحه، وشفاء غيظه بقهر[٣] عدو الله وعدوّه؛ فكيف بلذة إيمانه ومعرفته بالله، ومحبته له[٤]، وشوقه إلى لقائه، وطمعه في رؤية وجهه الكريم في جنات النعيم؟

النوع الثاني: لذة تمنع لذة الآخرة، وتُعقِب آلامًا أعظمَ منها، كلذّة الذين اتخذوا من دون الله أوثانًا مودةَ بينهم في الحياة الدنيا، يحبّونهم كحبّ الله، ويستمتعون بعضهم ببعض، كما يقولون في الآخرة إذا لقُوا ربهم: ﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ[١٢١/أ] لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ

النوع الثالث: لذة لا تعقِبُ لذةً في دار القرار ولا ألمًا، ولا تمنع أصل لذة دار القرار، وإن منعَتْ كمالَها[٢]. وهذه اللذة المباحة التي لا يستعان بها على لذة الآخرة. فهذه زمانها يسير، ليس لتمتُّع النفس بها قدر، ولابدّ أن تشغل[٣] عمّا هو خير وأنفع منها[٤].

وهذا القسم هو الذي عناه النبي ﷺ بقوله: «كلّ لهو يلهو به الرجل فهو باطل، إلا رميَه بقوسه، وتأديبَه فرسه، وملاعبتَه امرأته؛ فإنهنّ من الحقّ»[٥].

فما أعان على اللذة المطلوبة لذاتها فهو حقّ، وما لم يعن عليها فهو باطل[٦].

فلمحبّي القرآن من الوجد والذوق واللذة [١٢٢/أ] والحلاوة والسرور أضعافُ ما لمحبيّ السماع الشيطاني. فإذا رأيت الرجل: ذوقَه وجدَه وطربَه ونشوتَه[٢] في سماع الأبيات دون سماع الآيات، وفي سماع الألحان دون سماع القرآن، وهو كما قيل:

تُقرا عليكَ الختمَه[٣] وأنتَ جامِدْ كالحجَرْ
وبيتٌ من الشعرِ يُنْشَدْ[٤] تَميـــلُ كالنَّشْـــوانْ[٥]

وفي الصحيح من حديث جابر عن النبي ﷺ: أنّه رأى امرأةً، فأتى زينب، فقضى حاجته منها، وقال: «إنّ المرأة تقبل في صورة شيطان، وتدبر في صورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأةً فأعجبته فليأتِ أهلَه، فإنّ ذلك يرُدّ ما في نفسه»[٣].

خريطة كتاب الداء والدواء

سبب التأليف

جاء هذا الكتاب إجابة لسؤال عن بلية، ولم يصرح السائل عن هذا البلاء، لكن تبيّن لابن القيم أنه سؤال عن دواء العشق

المؤلف

أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي، المعروف: بابن قيم الجوزية؛ لأن والده كان قيّمًا على المدرسة الجوزية بدمشق. لازم شيخ الإسلام ابن تيمية وأخذ عنه واستفاد منه كثيرًا وسجن معه في دمشق بالقلعة، توفي سنة (٧٥١هـ).

السؤال

ما تقول السادة العلماء أئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين في رجل ابتلي ببلية، وعلم أنها إن استمرّت به أفسدت عليه دنياه وآخرته، وقد اجتهد في دفعها عن نفسه بكل طريق، فما تزداد إلا توقّدًا وشدة؛ فما الحيلة في دفعها؟ وما الطريق إلى كشفها؟ فرحم الله من أعان مبتلى، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، أفتونا مأجورين.

المقدمة

- الأدوية
  - لكل داء دواء
    - وهذا يعم أدواء القلب والروح والبدن وأدويتها
  - القرآن
    - أحواله مع البلاء
      - ١ أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه
      - ٢ أن يكون البلاء أقوى منه
      - ٣ أن يتقاوما
  - الدعاء
    - من أسباب الإجابة
      - حضور القلب
      - وقت مظنة إجابة
      - استقبال القبلة
      - الطهارة
      - رفع اليدين
      - البدء بالحمد والصلاة على النبي ﷺ
      - الإلحاح
      - الصدقة
      - التوسل بالأسماء والصفات
  - حسن الظن بالله
    - حسن الظن يحمل على حسن العمل
    - أما التعلق بحسن الظن مع اتباع الهوى عجز وغرور
- أنواع عقوبات الذنوب
  - قَدَرية
    - أكثر من ٥٠ عقوبة من حرمان البركة والرزق
      - على القلوب والنفوس، وهو أصل عقوبة الأبدان وأشدها
      - على الأبدان والأموال
        - في الدنيا
        - في الآخرة
  - شرعية
    - ١ القتل
    - ٢ القطع
    - ٣ الجلد
- أنواع الذنوب
  - في الحد والكفارة
    - فيها الحد بلا كفارة، كشرب الخمر
    - فيها كفارة بلا حد، كقتل الخطأ
    - لا حد فيها ولا كفارة
      - طبعي، كأكل العذرة
      - مفسدته أدنى مما فيه حد، كالنظر
  - درجات الذنوب
    - ١ مَلَكية كالعظمة والكبرياء
    - ٢ شيطانية كالحسد والغش
    - ٣ سبعية كالعدوان والقتل
    - ٤ بهيمية كالشره والشهوة
  - في عظمتها
    - ١ كبائر
      - أعظمها
      - الشرك
      - ثم القول على الله بلا علم
      - ثم القتل
      - ثم الزنا
    - ٢ صغائر

الجواب

- علاج العشق
  - حسم مادته قبل حصولها
    - غض البصر
      - الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده
    - اشغال القلب عنه
  - قلعها بعد نزولها
    - أن يعرف أنه مضاد للتوحيد
    - أن يأتي بما يشغل قلبه من العبادات
    - أن يكثر من التضرع إلى الله تعالى
    - أن يخلص قلبه لله تعالى
- أنواع العشق
  - محرم
    - مضار العشق المحرم
      - يشغله عن حب خالقه
      - عذاب قلبه بمعشوقه
      - قلبه مأسور
      - ينشغل عما ينفعه
      - يفسد قلبه وعقله
  - قربة وطاعة كعشق امرأته
    - فوائد العشق الحلال
      - رقة الطبع
      - ترويح النفس
      - حملها على مكارم الأخلاق
  - مباح كعشق امرأة وصفت له ولم يحدث معصية
    - علاجه
      - كتمه
      - دفعه
      - الانشغال بما هو أنفع

إعداد وتصميم
إصدار رقم ١